فی رحاب علی

علي بن أبي طالب ﷺ

المشهور عنه ﷺ أنه كان أول هاشمي من أبوين هاشميين فاجتمعت له خلاصة الصفات التي اشتُهرت بها هذه الأسرة الكريمة وهي: الشجاعة، الرجولة، الحكمة، الثبات.

اسمه: علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ويلتقي مع النبي ﷺ في الجد الأول.

أبوه: أبو طالب، تُوفي وعمره ٨٥ سنة وقف بجوار النبي ﷺ عشر سنوات.

جده: هاشم، واسمه عمرو ولكنه سُمّي بهاشم؛ لأنه كان يهشم السريد ويوزعه على الفقراء، تُوفي في غزة ودُفن بها.

أمه: فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف تلتقي مع النبي ﷺ في الجد الثاني.

أسلمت وهاجرت، وماتت في المدينة، وكفّنها النبي ﷺ في قميصه ودفنها بيده، وكان يقول: **«رحمك الله يا أمي، أنت أمي بعد أمي»**.

كنيته: أبو الحسن، نسبة إلى ابنه الأكبر.

مفتاح شخصيته: هي آداب الفروسية التي نلخصها في كلمة هي: «النخوة» **أخواته:** ثلاثة رجال هم: طالب، عقيل، جعفر.

وبنتان: أم هانئ، جُمانة:

زوجاته: السيدة فاطمة الزهراء، عاش معها إلى أن تُوفيت وقد تزوجها قبل غزوة بدر، وقيل: بعد غزوة أُحد، وكان عمرها ١٨ سنة وتُوفيت وعمرها ٢٦ سنة.

تزوج بعدها كثيرًا منهم السيدة أسماء بنت عُميس.

أولاده: ١٤ ذكرًا، ١٩ أنثى، وأولاده من السيدة فاطمة الزهراء: الحسن والحسين ومحسن وأم كلثوم وزينب.

من أولاده: الحسن والحسين ومحسن وزينب وأم كلثوم وأم هانئ، وأم سلمة وجعفر، وخديجة، ومحمد الأكبر، ومحمد الأوسط، وعثمان، وأبو بكر، وعمر، والعباس، ويحيى، وميمونة، وعون، وأم كلثوم الصغرى، وفاطمة، ومحمد الأكبر هو محمد ابن الحنفية.

إسلامه: أخذه الرسول ﷺ وعمره خمس سنوات ورباه ليخفف الأعباء عن عمه أبو طالب، وأسلم وهو فى العاشرة من عمره، هاجر وعمره ٢٣ سنة، فى غزوة بدر كان عمره ٢٥ سنة.

قاد المعركة فى غزوة خيبر وعمره ٣٠سنة، تولى الخلافة وعمره ٥٥ سنة وتوفى وعمره ٦٣ سنة.

شكله: يقولون إذا نظرت إلى وجهه كأنك تنظر إلى القمر، وإذا ابتسم كان شديد الشبه بالرسول ﷺ، وإذا مشى تظن أنه النبى ﷺ، مفتول العضل، أصلع، غزير شعر الصدر والكتفين، ليس بالطويل ولا بالقصير.

ليلة الهجرة: نام فى فراش النبى، واختاره ﷺ، لهذه المهمة لرد الودائع إلى أهلها.

فضائله: أنه حامل لواء يوم بدر «يوم الفرقان» وكان قائد الميمنة وأُعطى الراية يوم فتح خيبر، فقد قال النبى ﷺ يوم خيبر: **«لأُعطين الراية غدًا لرجل يُحب الله ورسوله، ويُحبه الله ورسوله يُفتح على يديه»** وكان هو على بن أبى طالب.

فى غزوة الخندق: قتل عمرو بن وُدّ، الذى طلب المبارزة، فقام له «عليّ» فبارزه وقطع رأسه وأتى بها.

فى صلح الحديبية: كتب المعاهدة مع سُهيل بن عمرو.

قال عنه سعد بن أبى وقاص: ثلاثة أُعطين لـ«عليّ» لو أخذت واحدة منها لملكت الدنيا بما فيها:

الأولى: زوّجه الرسول ﷺ من ابنته.

الثانية: أعطاه الراية يوم خيبر.

الثالثة: قال له النبى ﷺ: **«أما ترضى أن تكون لى بمنزلة هارون لموسى»**.

من أقواله: «إياكم وتعلم النجوم، إلا ما يهتدى به فى بَرٍّ أو بحر فإنها تدعو إلى الكهانة، والمنجم كالكاهن، والكاهن كالساحر والساحر كالكافر، والكافر فى النار!»

ومن أقواله: «كل وعاء يضيق بما جُعل فيه إلا وعاء العلم فإنه يتسع».

* * *

فى رحاب عليّ

فى أواخر عهد «عثمان» ﷺ، لعبت أهواء نفر من بنى أُمية بمصاير الدولة وبمقاديرها لعبًا أفضى آخر الأمر إلى فتنة مسلحة تنادى لها أصحابها من شتى أقطار الإسلام، واستغلها على نطاق واسع أعداء الدين الجديد الذين هدم عالَمهم القديم كله وقضى على مصالحهم وضلالهم..

وبلغت الفتنة فى جولتها الأولى غاية احتدامها وظلامها بمقتل الخليفة «عثمان» ﷺ.

ولسنا الآن بصدد الحديث عن وقائع تلك الأحداث الرهيبة فقد تناولنا ذلك بالتفصيل فى كتابتنا عن «عثمان» ﷺ، أما هنا، فسنكتفى برؤية الظروف الحالكة التى حمل فيها «أمير المؤمنين على بن أبى طالب» ﷺ، تبعة الحكم ومسؤولية الخلافة..

لقد قصد الثوار إثر فراغهم من اقتراف جريمتهم النكراء، قصدوا وأيديهم لم تجف منها دم الخليفة الشهيد الذى اغتالوه فى بشاعة مفزعة .. ذهبوا للإمام على لكى يبايعوه، فرفض الإمام بعد أن ألقى عليهم من تقريعه ووعيده ما جعلهم يتخاذلون، وينصرفون عنه فى خزى وهوان .. !

ذهبوا إلى «طلحة» فرفض الخلافة، وإلى «الزبير» فرفض الخلافة .. وإلى «عبد الله بن عمر» فرفض الخلافة، وإلى «سعد بن أبى وقاص» فرفض، والحق أن رفض «الإمام عليّ» للخلافة هو الذى حتّم عليه آخر الأمر قبولها..

ذلك أنه برفضه هذا، زاد عنها كل الرجال حتى الطامعين فيها.. ولم يجرؤ أحد، وقد رأوا «ابن أبى طالب» يرفضها احتجاجًا على اغتيال الخليفة الشرعى «عثمان»!!

ولكن لابد للدولة من حاكم وخليفة، وكل دقيقة تمر والمكان شاغرٌ تشكل خطرًا قد يودى بمصير الأمة كلها والإسلام كله.

ولقد أدرك ذلك جميع الناس بالمدينة أهلها .. والثوار الطارئون عليها .. والساخطون على مقتل «عثمان» والمشتركون فيه..

كلهم أدركوا الخطر الماحق المزلزل الذى سيحلُّ بالأمة، إذا لم يمسك بالزمام على الفور، رجل مقتدر يستطيع أن يوقف جموح الفتنة ويرأب ذلك الصدع العريض..

وهكذا عاد الثوار إلى الإمام مُلحون ويرجون، وقبل الثوار، تقدم الراشدون من أهل المدينة يبايعون «عليًّا» على الخلافة .. وبهذه البيعة التى كانت -يومئذٍ- الطريقة التى يُختار بها الخليفة.. صار الإمام «عليّ» خليفة للمسلمين.

لم تكن الخلافة عندما عُرضت على «الإمام» وعندما قبلها، تشكل أى مغنم من مغانم الحياة.. بل كانت تشكل عبئاً لحامله الويل كل الويل إن لم يُعنْه الله..

وبدأ الإمام «عليّ» مهام منصبه كخليفة:

أولًا: لقد بدأ يردُّ طريقة العطاء من بيت المال إلى النهج الذى كان يسير عليه الخليفة الأول «أبو بكر الصديق» ﷺ وكان «الصديق» ﷺ ، يعطى جميع الصحابة والمسلمين بالسوّية دون تفرقة بين من سبق إلى الإسلام، ومن جاء متأخراً، فلما وُلى الخلافة «عمر» ﷺ، نهج نهجًا آخر، فجعل للسابقين الأولين أكثر مما يأخذ الذين تأخر إسلامهم، وقال فى ذلك قولته المأثورة: «لا أجعل من قاتل رسول الله، كمن قاتل معه».

فجاء الإمام «عليّ» فقرر أن يرد العطاء إلى نهج أبى بكر.. وهو يعلم علم اليقين أن ذلك سيغضب بعض الصحابة ولكن ابن عم رسول الله، لا يعرف المساومة فى الحق هذه واحدة..

والثانية: التى نادت إليه المتاعب وفعلها فى ولاء للحق، هى أن نفرًا من ولاة الخليفة الراحل «عثمان» لم يكونوا فى رأى الإمام «عليّ» أهلاً لهذه الولاية.. ولقد كانوا السبب المباشر فى الفتنة الرهيبة التى أودت بحياة الخليفة «عثمان» لذلك بدأ «الإمام» فى الساعات الأولى لخلافته، يصدر أوامره بعزل هؤلاء واضعًا مكانهم فريقًا من الأصحاب الذين معهم من الدين، ومن الاستقامة ومن المقدرة ما يجعلهم موضع ثقة الخليفة.

عزل أولئك، وولى هؤلاء.. وكان ضمن المعزولين «معاوية» الذى كان يومئذ والياً على الشام بأسرها.

فقد نهض على الفور فأرسل عُماله الجدد إلى الأمصار

عثمان بن حُنيف إلى البصرة..

وعمارة بن حسان إلى الكوفة..

وعبد الله بن عباس إلى اليمن..

وسهيل بن حُنيف إلى الشام..

وقيس بن عُبادة إلى مصر..

ولقد تسلم الولاة عملهم فى سلام، إلا سُهيل بن حُنيف فإنه لم يكد يصل أرض تبوك بالشام حتى استقبلته كتيبة من جيش معاوية حالت دون دخوله البلاد، ولما رجع إلى المدينة، حاملاً هذا النبأ إلى الإمام، لم يفاجأ بما سمع فقد كان يتوقع من معاوية مثل هذا التمرد غير المشروع.

فكتب إليه..

«.. أما بعد، فقد بلغك الذى كان من مُصاب عثمان، واجتماع المسلمين علىّ ومبايعتهم لى، فادخل فى السلم أو اثذن بحرب..»

ولكن رد «معاوية» كان عجيباً. فقد قال لرسول الخليفة:

«عُد أنت إلى حيث جئت، وسأرسل بجوابى مع رسول من عندي»

وفعلا، أرسل جوابه مع رجل من بنى عبْس وما كاد الإمام «علىّ» يفض الرسالة ليقرأها، حتى ملأت الدهشة مُحياه.. لقد كانت الرسالة ورقة طويلة وعريضة، ليس فيها من كلام مسطور سوى هذا السطر الواحد:

- من معاوية بن أبى سفيان، إلى على بن أبى طالب..!!

ثم قام مبعوث معاوية الذى راح يتكلم قائلًا:

أيها الناس، اسمعوا منى وافهموا عنى..

«إنى قد خلفت بالشام خمسين ألفًا، خاضبى لحاهم بدموع أعينهم تحت قميص عثمان، رافعيه على أطراف الرماح ما قد عاهدوا الله ألا يشيموا سيوفهم حتى يقتلوا قتلته أو تلحق أرواحهم بالله»!!!

هذه إذن: رسالة «معاوية».

* * *

الأسباب التى أدت إلى موقعة الجمل

فى الوقت الذى أخذ فيه الإمام على بن أبى طالب يُجهز للخروج إلى الشام جاءه ما لم يكن يتوقعه، فقد كانت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها سمعت بنبأ مقتل عثمان ﷺ، فغضبت لهذه الجريمة البشعة وأخذت تردد: قُتل والله عثمان مظلومًا لأطلبن بدمه.

كان طلحة والزبير أول من بايع الإمام على على الخلافة وبعد البيعة بأيام ذهب طلحة والزبير إلى الإمام على ﷺ وطلبوا منه أن يُقيم الحدّ على قتلة عثمان فاعتذر الإمام وقال: «إن قتلة عثمان لهم مددٍ وأعوان وهم كثرة وأين القوة التى نستطيع أن تنفذ هذا الآن».

فلما اعتذر على ﷺ، قرر طلحة والزبير الخروج من المدينة إلى مكة، وكانت السيدة عائشة فى مكة لأداء مناسك الحج وقد كانت تحث الناس للمطالبة بدم عثمان، والتقت بطلحة والزبير وبعض بنى أُمية من قوم عثمان واتفقوا جميعًا على تجهيز جيش للمطالبة بإقامة الحدّ على قتلة عثمان.

واتجهوا إلى البصرة واتفقوا على البصرة باعتبارها أقرب بلد من البلاد التى اشترك أهلها فى الفتنة والخروج على عثمان ﷺ، فى الطريق إلى البصرة مرت السيدة عائشة على بعض مياه بنى عامر فنبحت عليها الكلاب، فقالت: «أى ماء هذا؟» قالوا: هذا ماء «الحوأب» «ما أظننى إلا راجعة» فقد تذكرت حديث النبى ﷺ لزوجاته عن هذه الحادثة.

وهذا الحديث رواه البزار وأحمد وابن حبان والألبانى فى السلسلة من حديث ابن عباس ﷺ.

أن رسول الله ﷺ قال لزوجاته: «أيتُكن صاحبةُ الجمل الأدبب[1] تخرج حتى تنبحُها كلابُ الحوأب، يُقتل عن يمينها وعن شمالها قتلى كثير، وتنجو بعد ما كادت أن تهلك» فلما قررت الرجوع، قالوا لها: لا ترجعين عسى الله -عز وجل- أن يُصلح بك بين الناس، وفى رواية قال لها بعضهم: بل تقدّمين فيراك الناس فيصلح الله بك إن شاء الله ذات بينهم. سارت السيدة عائشة أم المؤمنين والزبير وطلحة على رأس حشد كبير من المسلمين إلى البصرة، ليحُرضوا المسلمين بالعراق على الثأر من قتلة عثمان.

---

(١) الأدبب: هو الجمل الذى يظهر فى وجهه شعر كثيف.

وكان الإمام «عليّ» قد غادر المدينة إلى الشام عندما جاءته رسالة معاوية التى مر بنا ذكرها، وقال الإمام:

«إن لأهل الشام وثبة أحب أن أكون قريبًا منها»

ولكنه، وهو فى طريقه إلى الشام، جاءته الأنباء بمسيرة السيدة عائشة وطلحة، والزبير إلى البصرة.

أى ابتلاء هذا؟!

ألا يُترك ثأر «عثمان» للدولة تقوم به، وتقتصُ له فى الوقت المناسب والفرصة الملائمة؟

لم يكن لدى «الإمام» شك فى اقتناع السيدة «عائشة» و«طلحة» و«الزبير» ببراءته الكاملة من دم عثمان.. ففيم إذن خروجهم..

إن النبأ السارى يقول: إنهم خرجوا ليتعقبوا قتلة عثمان فى البصرة وليستعينوا بصالحى البصرة وبقية أهل العراق ممن آسفهم قتل الخليفة على أولئك الذين ائتمروا على حياته وخاضوا فى دَمه..

ولكن هناك «دولة» على رأسها رجل مسؤول لم تكن ذمته، ولا أمانته ولا ورعه، ولا شدّته فى الحق حتى على نفسه. لم يكن ذلك كله موضع تساؤل أو اتهام منذ رأى نور الحياة وليداً إلى يومه هذا..

أفلا تُترك الدولة وعلى رأسها حاكم هذا طرازه الرفيع الأمثل، تُسوى هى ويُسوى حاكمها مسألة عثمان..؟

وإذا وقف فريق من الأمة يطالب بدم عثمان، وفريق آخر يَدْحض ويقاوم هؤلاء المطالبين، واشتبك الفريقان فى معارك مسلحة فأين الدولة آنئذ..

أتجلس فى شرفة الملعب لتتفرج على المذبحة؟.. وما مصير الإسلام كدين..؟ وما مصير المسلمين كأمة..؟

دارت على ذلك كله خواطر «الخليفة» واتخذ قراره سريعاً، فأمر موكبه الهادر من المدينة أن يلوى زمامه شطر البصرة.. وعندما شارفوا تخومها نزلوا هناك بمكان يُسمى «ذاقار»..

وسرعان ما تحققت ظنونه وصدق حَدْسه، فإن موكب السيدة عائشة لم يكن يستقر فى البصرة.. حتى وقع صدام مُروع بينه وبين حشود كبيرة من أهل البصرة أبوا أن يُسلموا

أقرباءهم وزويهم ممن اشتركوا فى مقتل عثمان؛ إنها إذن الحرب الأهلية التى حاذرها الإمام..

وإنه وحده المسؤول الأول والأخير عنها..

أليس هو رئيس الدولة؟ فإما أن يكون كفئًا لفرض احترام القانون والدولة وإما أن يدع مكانه لآخر من الأكفاء..

وليس هناك يومئذٍ أكفأ من أبى الحسن «وإن العظائم كفؤها العظماء!!» لقد اعتاد «الإمام» دائمًا أن يتصرف تصرف القدوة.. فهو فى كل حركاته وقراراته وأعماله يلتزم واجبات القدوة..

وهو الآن وقد واجهته الفتن فى موج كالجبال، لن يلقاها بمسؤوليات «الخليفة» فحسب.. بل سيلقاها قبل ذلك بمسؤولية «القدوة»!!

أجل.. بمسؤولية «القدوة» الذى ستصبح اتجاهاته وقراراته طريقًا عامًا، وقانونًا عامًا لعصور مقبلة وأجيال وافدة.

ولن نجد فى حياة «الإمام» بكل عظمتها وعطائها أروع من مواقفه فى تلك الفتن المظلمة الرهيبة التى واكبت خلافته من أول ساعة إلى أن لقى ربه..

هنا نلتقى بمُعلم كبير، ليس من طرازه سواه.. مُعلم لم يكن يعنيه النصر على خصومه، ولا تأمين خلافته وحكمه وسلطانه، إنما كان يعنيه - لا غير- أن يعطى من حياته ومسلكه صورة مشّرفة من الرعيل الأول، سمع دوى الوحى، وصلى وراء محمدﷺ..!!

أجل.. صورة مشرّفة لمسلم رباه القرآن، وقدوة صالحة لموكب المسلمين وهكذا نلتقى بـ «الخليفة» يتصرف تصرف القدوة.. الآن، واليوم وهو يواجه جيشاً تقوده «أم المؤمنين» و«الزبير» و«طلحة» وغدًا.. وهو يواجه جيوش معاوية.. وبعد غد.. وهو يواجه الخوارج.

عندما جاءته أنباء الصدام فى البصرة، بعث إلى أهل الكوفة يدعوهم لنصرته فلما وفدوا عليه زلزلوا الأفق بصياحهم، وملؤوه بسيوفهم المشرعة وراحوا يتعجلون «الإمام» ليواجه بهم جيش البصرة بقيادة طلحة والزبير.

وهنا تجلت فطنة الإمام ونُور بصيرته، فلقد استبان من الحماس المشوب لأهل الكوفة،

أنهم كانوا على وشك أن يخرجوا بأنفسهم مسلحين إلى البصرة لينضموا إلى المقاومة المسلحة التى هبّت هناك فى وجه طلحة والزبير، ذلك أنه إذا كان من أهل البصرة من اشترك فى الثورة على الخليفة الراحل «عثمان» فإن فى أهل الكوفة من اشترك أيضًا..

والآن.. وقد رأوا أنفسهم فى مهبّ العواصف، فقد تنادوا بالنُّصرة، وتلاقوا على الحمّية..

فوضع هذه القوات الثائرة تحت سلطة القانون والدولة، كان عملًا حكيمًا وحصيفًا.

رأى أمير المؤمنين حماس أهل الكوفة، فأراد أن يهديهم سواء السبيل وراح يعلمهم الحق.. وأنهم إذا فُرض عليهم أن يخوضوا قتالًا فلابد أن يكون مشروعًا وعادلًا.. وهو لا يكون كذلك حتى يستفرغ الجهد فى إحقاق الحق عن طريق الإقناع والسلام..

هنالك دعا القعقاع بن عمرو- وأرسله بغصن الزيتون إلى أم المؤمنين وطلحة والزبير..

وفى البصرة بدأ «القعقاع» بمحادثة «أم المؤمنين» ثم جاء «طلحة» و«الزبير» فعقدوا اجتماعًا طال فيه الحوار.

وندع «ابن كثير» ينقل إلينا بعض فقرات هذا الحوار

القعقاع: يا أم المؤمنين، ما جاء بك إلى هذا البلد؟

أم المؤمنين: الإصلاح بين الناس..

القعقاع: وأنتما - طلحة والزبير- ما جاء بكما؟

طلحة والزبير: الإصلاح بين الناس..

القعقاع: فأخبرونى كيف يكون هذا الإصلاح؟

طلحة والزبير: يكون بالثأر لعثمان، وقتل قاتليه..

القعقاع: لقد قتلتما قتلته من أهل البصرة، وأنتما قبل قتلهم أصوب نهجًا منكم بعد قتلهم، لأنكم قتلتم ستمائة فغضب لهم ستة آلاف وها أنتم أولاء تطلبون أحد القتلة وهو - مرقوص بن زهير- فلا تقدرون على إدراكه، لأن ستة آلاف يشايعونه ويحمونه.. أفلا تعذرون أمير المؤمنين عليًا إذا هو أخرّ قتل قتلة -عثمان- إلى أن يتمكن منهم؟

أم المؤمنين: وما ترى يا قعقاع؟

القعقاع: أرى أن تؤثروا العافية، وتُعطوا البيعة، وأن تكونوا مفاتيح خير كما كنتم أولًا -ولا تُعرّضون للبلاء فتتعرضوا له!!

وانتهى الحوار - كما يحدثنا ابن كثير- باقتناعهم بمنطق القعقاع، واتفاقهم على أن يجئ الإمام «عليّ» إلى البصرة ليتم لقاء السلام..

عندما رجع «القعقاع» إلى «الخليفة» وأنبأه بما كان، طار فؤاده فرحًا، لقد حفظت دماء المسلمين فلن تُراق.. وليس مثل ذلك يفيء على روح «الإمام» السعادة والغبطة.

وخطبته التى ألقاها على جنده ساعتئذٍ، تنقل إلينا أفراح نفسه لقد راح يستعرض لهم الجاهلية بخصوماتها العاتية وحروبها الضارية حتى جاء الإسلام فألف بين القلوب، وآخى بين البشر، وجعل الناس سواسية كأسنان المشط، لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى..

وذكرهم بتلك الوحدة الباهرة التى جمعت المسلمين من كل مكان تحت إمرة رسول الله ﷺ. ثم تحت إمرة خليفته من بعده «أبى بكر الصديق» ثم تحت إمرة أمير المؤمنين «عمر» ثم تحت إمرة خليفة المسلمين «عثمان» وختم حديثه قائلًا، إنى مُرتحل غدًا، فارتحلوا معى.. ولا يرتحل معى أحد أعان على قتل عثمان ولو بشطر كلمة»!!

ورحل أمير المؤمنين إلى البصرة بمن معه من صحبه وجُنده.. وحطوا رحالهم هناك حيث أخذ كل فريق يتهيأ لإجراء الصلح..

ولكن كانت هناك عيون لا تنام، ومؤامرات لا تغفو.. والله وحده يعلم حقيقة القُوى المخبوءة التى حرّضت تلك العيون ونسجت تلك المؤامرات، وغيّرت اتجاه الرياح!

التاريخ يحدثنا -فيما يُحدث- أن قتلة «عثمان» حزموا أمرهم على إفساد هذا الصلح معتقدين أنه سيتم على حساب رؤوسهم ودمائهم فهل كان ذلك كذلك فحسب..؟ أو كانت هناك قوى غير منظورة لها فى إشعال النار هوى ومصلحة..؟

على أية حال، فإن فجر اليوم الذى ضُرب موعداً لبدء المصالحة لم يكاد يبزغ حتى كان ألفا رجل من قتلة «عثمان» يقتحمون خيام جيش البصرة الذى يقوده طلحة والزبير، ويعملون سيوفهم فيهم وهم نائمون..

ونهض الجميع إلى سيوفهم.. ولم يكن هناك مجال لإزالة اللبّس وتفنيد المؤامرة، ووقف الفتنة، فقد ظن أهل البصرة أن حديث الصلح كان خُدعة.

وهكذا التقى الجيشان فى موقعة «الجمل» على الرغم من كل محاولات الإمام لينقذ الإسلام!!

موقعة الجمل

مضى القتال حاميًا عنيدًا..

ومع كل رأس يميل، أو معصم تُبتر. أو ساق تقطع، بل مع كل قطرة دم تسيل، كان قلب «الإمام» ينخلع ويذوب..

..واليوم والقاتل والمقتول أبناء دين واحد، وهو الخليفة المسؤول عن هذه الأمة بكل دمائها وأرواحها، فمن يُجيره من هذا الموقف؟ من يجيره؟

ففيم تقتتل هذه الألوف من المسلمين؟؟

أليس بعضهم يقاتل من أجل «عليّ» وبعضهم الآخر مع «طلحة» و«الزبير»..؟

إذن ليبرز طلحة والزبير وعلى معًا.. حيث يسوّون مع أنفسهم وحدها الحساب على أية صورة فيقف جريان تلك الدماء الغالية. هنالك دفع «الإمام» جواده وسط صفوف الجيش المقاتل له ونادى:

إلى يا طلحة.. إلى يا زبير!!

وخرجا إليه..

وتوسط الثلاثة الصفوف المتلاحمة كالطوفان.

ولما ذكّرهما بأيامهما أيام الرسول ﷺ، قال الزبير «أجل.. ولقد ذكرتنى بما كنت قد نسيت».

وألقى سيفه إلى الأرض، وغادر أرض القتال.. وغادرها «طلحة» ولكن الأضغان المريبة لم تدعهما ليذهبا فى سلام.

فأما الزبير فقد تربصت به فى الطريق عصابة قتلته..!!

وأما طلحة، فلما يكد يعلم بعزمه على الانسحاب من القتال حتى تربصوا به ورموْهُ بسهم أنهى حياته!

لم يبق لجيش البصرة من قائديه أحد..

لقد ذهب عنه طلحة، والزبير.. بل لقد ذهبا عن الدنيا كلها إلى ربهم الغفور الرحيم.

هنالك لم يجد الراغبون فى استمرار القتال سوى «أم المؤمنين» فى هودجها فوق ظهر الجمل الذى كانت تمتطيه مشرفة على القتال..

ورأى «الإمام» أن خصومه قد اتخذوا من الجمل كعبة أحاطوا بها، وبدا له أن نهاية المعركة ووقف الدماء المهراقة، منوطان بنهاية هذا الجمل وأشير عليه، أو أشار هو على نفسه أن يُرمى الجمل بسهم يجهز عليه وأوصى بعض أصحابه وجنده أن يكونوا على أقرب قرب مستطاع من الجمل، حتى إذا عقر وسقط، سارعوا إلى هودج السيدة عائشة وأحاطوه بأرواحهم، وتلقّوه قبل أن يسقط على الأرض فيصيبها سوء.

رجل .. وبطل .. وقدوة

فماذا يُنتظر منه غير هذا الصنيع..؟!

ونُفّذت الخطة بنجاح..

وانتهت المعركة، ووُقف القتال.

ودعا إليه «محمد بن أبى بكر» فأمره أن يصحب أخته أم المؤمنين «عائشة» إلى دار أُعدت لاستقبالها ريثما تتهيأ لها وسائل العودة إلى مكة.

ثم وقف «الإمام» بنفسه وسط جنده وأصحابه ليتلو عليهم قراره الجديد: «..لا تتبعوا موليًّا.. ولا تجهزوا على جريح.. ولا تنتهبوا مالًا.. ومن ألقى سلاحه فهو آمن.. ومن أغلق بابه فهو آمن»..

وانتهت هذه الجولة بانتصار أمير المؤمنين..

لم يكن الانتصار العسكرى يمثل سوى الحظ الأدنى فى هذا الانتصار الكبير.. أما الحظ الأوفى فيه فكان انتصار حقه، ومبادئه.. فانسحاب طلحة والزبير من القتال فى أوجّ احتدامه، جاء اعترافًا منهما بأن «عليًّا» مع الحق..

وندم «أم المؤمنين» فيما بعد على الزجّ بنفسها فى هذا الموقف يُشكل اعترافًا بأن «عليًّا» على الحق..

وهذا هو النصر الأهم الذى ينشرح له صدر «الإمام» نرجع إلى قتل الخليفة عثمان ﷺ، حقًا إن قتل الخليفة الشهيد «عثمان» كان أبشع جريمة أُرتكبت فى تاريخ المسلمين حتى ذلك اليوم.

ولا تتمثل الجريمة فى اغتيال الخليفة الشرعى، فحسب، وإن يك ذلك كافيًا لدمغها بالجريمة وبالبشاعة.. إنما تتمثل أكثر وأكثر فى الطريقة التى تم بها الاغتيال.

إننا نسأل: فيم هذا الصراخ كله فى وجه الإمام «عليّ» -أين دم عثمان؟ إننا لا نلوم، بل نُحيى كل صوت صادق نزيه ارتفع مطالبًا بدم عثمان!

ولكن.. هل كان نهج «معاوية» هو النهج الصحيح الأمثل لإنزال القصاص بأولئك القتلة؟

أكان طريق القصاص أن يمتنع أولًا عن البيعة للخليفة الجديد الذى اختاره المهاجرون والأنصار فى المدينة، ثم دخل المسلمون فى بيعته أفواجًا من كل الأمصار والأقطار؟

إن جميع المسلمين الراشدين وقفوا بعد مقتل الخليفة يطالبون باحترام دمه والقصاص له..

إن ذلك كان يمثل أيضًا احترام الدولة والقصاص لحرمتها وهيبتها والإمام «عليّ» نفسه كان يطالب بالدم. بل صارت السلطة التى عليها أن تنزل القصاص.

ولما كان المشتركون فى قتل «عثمان» والمحرضون عليه ألوفًا، ولما كانت فتنتهم المسلحة لا تزال قائمة ونامية، فضلًا عن المضاعفات الجديدة الخطيرة التى طرأت على الدولة مُمثلة فى معركة الجمل وفى تمرد أهل الشام - فإنه لم يكن ثمة فرصة لإنزال هذا القصاص إلا بإيجاد التوقيت المحكم لفرض كلمة القانون وسط هذا الجو المضطرب وتلك الفوضى.

لقد رحل عن البصرة، وسار بأصحابه حتى نزل «الكوفة» بدأ ببيت المال فأخرج كل ما كان تحت سقفه من أموال وقسمها على مستحقيها..

يقترح عليه بعض مُرافقيه أن يستأنى فى الأمر وأن يستبقى المال ما سيحتاج إليه ليتألف به رؤساء العشائر والجماعات، فيرفض ويستمر فى غايته حتى إذا فرغ بيت المال يأمر أن تُنضح أرضه وتغسل بالماء، حتى إذا تم ذلك، قام فصلى فوق أرضه ركعتين!!

وكان معنى ذلك إيذانًا بعهد جديد تسيطر فيه الآخرة على الدنيا ثم دُعى لينزل قصر الإمارة.. قصر كبير ترتفع هامته فى شموخ، فلا يكاد يبصره حتى يولى مدبرًا وهو يقول:

«قصر الخبال هذا، لا أسكنه أبداً»!!

ويمشى فى أسواق الكوفة، وهو خليفة المسلمين، فيرشد الضال ويعين الضعيف، ويلتقى بالشيخ المسن الكهل، فيحمل عنه حاجته ويتحرج أصحابه مما يرون، فيقتربون منه: يا أمير المؤمنين ولكنه لا يدعهم يتمون حديثهم بل يتلو عليهم قول الله تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص: ٨٣].

لقد أحسن وصفه «عمر بن عبد العزيز» ﷺ حين قال: «أزهد الناس فى الدنيا على بن أبى طالب».

موقعة صِفين

بعد موقعة الجمل استعد الإمام على بن أبى طالب لمحاربة معاوية رضى الله عنهما، وغادر الإمام معسكر النُخيلة بالكوفة بجيش يبلغ عدده ١٠٠ ألف وغادر معاوية ﷺ الشام بجيش يقترب من جيش الإمام على إلى «صفين».

و... صِفين سهل يقع على الجانب الغربى لنهر الفرات شمال بلدة الرّقة فى آخر حدود العراق، وفى أول حدود الشام.

وقبل المعركة دارت بينهما مراسلات بلغت أكثر من شهر لكنها لم تؤدِّ إلى نتيجة، وفى شهر صفر سنة ٣٧هـ اشتعلت الحرب بين الفريقين وظلت عشرة أيام مُتصلة؛ قُتل خلالها الآلاف من المسلمين، واشتد الأمر على الفريقين ووقعت الخسائر الضخمة فى جيش معاوية وأصبحت هزيمتهم قاب قوسين أو أدنى وعند ذلك رأى معاوية أن يضع حدًّا لهذا الأمر، فطلب من عمرو بن العاص الرأى والمشورة، فأشار عمرو بن العاص عليه «بطلب التحكيم ورفع المصاحف على أسنة الرماح.

رفع المصاحف

أصدر معاوية إلى كبار رجاله بأن يرفع كل منهم مصحفًا على رمحه إشارة إلى الاحتكام إليه، وارتفعت صيحة فى جيشه تقول: «كتاب الله بيننا وبينكم» رفع حوالى ٥٠٠ مصحف.

قاصمة التحكيم

قال ابن العربي: وقد تحكم الناس فى التحكيم، فقالوا ما لا يرضى الله وإذا لاحظتموه بعين المروءة -دون الديانة- رأيتم أنها سخافة، حمل على سطرها فى الكتب -فى الأكثر عدم الدين، وفى الأقل -جهلُ مبين، والذى صح من ذلك ما روى الأئمة كخليفة ابن خياط والدارقطنى أنه لما رفعت المصاحف من أهل الشام، ودعوا إلى الصلح، وتفرقوا على أن تجعل كل طائفة أمرها إلى رجل منهم، حتى يكون الرجلان يحكمان بين الدعوتين بالحق، فكان من جهة الإمام على، أبو موسى الأشعرى ومن جهة معاوية، عمرو بن العاص، وكان أبو موسى رجلًا تقيًّا فقيهًا عالمًا.

وقد زعمت الطائفة التاريخية الركيكة: أنه كان ضعيف الرأى، مخدوعًا فى القول، وأن ابن العاص كان ذا دهاء حتى ضربت الأمثال بدهائه، تأكيدًا لما أرادت من الفساد، وتبع فى ذلك بعض الجهال بعضًا، وصنعوا منها حكايات، وأن غيره من الصحابة كان أحذق منه، وأدهى..

وبنوا ذلك على أن عمرًا لما غدر بأبى موسى فى قصة التحكيم صار له بذلك الذكر فى الدهاء والمكر، وقالوا: إنهما لما اجتمعا بأزرح فى دومة الجندل، وتفاوضا اتفقا على أن يخلعا الرجلين فقال عمرو لأبى موسى: اسبق بالقول، فتقدم فقال: إنى نظرتُ فخلعتُ عليًّا عن الأمر ولينظر المسلمون لأنفسهم، كما خلعتُ سيفى هذا عن عاتقى وأخرجه من عتقه، فوضعه على الأرض، وقام عمرو فوضع سيفه بالأرض وقال: إنى نظرتُ فأثبت معاوية فى الأمر، كما أثبت سيفى هذا فى عاتقى، وتقلده، فأنكر أبو موسى، فقال عمرو: كذلك اتفقنا، وتفرق الجمع على ذلك من الاختلاف.

عاصمة

قال ابن العربى ط: هذا كله كذب، ما جرى منه قط حرف وإنما هو شيء اخترعته المبتدعة ووضعته التاريخية للملوك، فتوارثه أهل المخالطة والبدع وإنما الذى روى عن الأئمة الثقات إن أبا موسى وعمرًا اتفقا على أن يعهدا بأمر الخلافة على المسلمين إلى أعيان الصحابة الموجودين على قيد الحياة، واتفاقُ الحكمين على ذلك لا يتناول معاوية؛ لأنه لم يكن خليفة، ولم يقاتل على الخلافة، وإنما كان يطالب بإقامة الحد الشرعى على الذين اشتركوا فى قتل عثمان.

إذًا التحكيم تناول شيئًا واحدًا هو «الإمامة» أما التصرف فى إدارة البلاد فكان «الإمام عليّ» متصرف فى البلاد التى تحت حكمه، ومعاوية متصرف فى البلاد التى تحت حكمه.

فالتحكيم لم يقع فى خداع ولا مكر، ولم تتخلله بلاهة ولا غفلة، وكان يكون محلًّا للمكر أو الغفلة لو أن عمرو بن العاص أعلن فى نتيجة التحكيم أنه ولى معاوية إمارة المؤمنين وخلافة المسلمين. وهذا ما لم يُعلنه عمرو، ولا ادعاه معاوية، وخلافة معاوية لم تبدأ إلا بعد الصلح مع الحسن بن على بعد وفاة الإمام على وقد تمت بمبايعة الحسن لمعاوية فيما بعد.

وعلى هذا نقول كما جاء فى كتاب «العواصم من القواصم»: أهل السنة المحمدية يدينون لله على أن عليًّا ومعاوية ومن معهما من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا جميعًا من أهل الحق،وكانوا مخلصين فى ذلك.

والذى اختلفوا فيه إنما اختلفوا عن اجتهاد، كما يختلف المجتهدون وهم – لإخلاصهم فى اجتهادهم – مثابون عليه فى حالتى الإصابة والخطأ، وثواب المصيب أضعاف ثواب المخطئ.

ولهذا كان مذهب أهل السنة الإمساك عما شجر بين الصحابة، فإنه ثبتت فضائلهم ووجبت موالاتهم ومحبتهم».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية فى «منهاج السنة» (٣/ ١٨٥) لم يكن من ملوك الإسلام ملك خيرًا من معاوية،ولا كان الناس فى زمان ملك من الملوك خيرًا منهم فى زمن معاوية.

وقال الصحابى الجليل أبو الدرداء لأهل الشام: «ما رأيت أحدًا أشبه صلاة بصلاة رسول الله ﷺ، من إمامكم هذا» -يعني: معاوية-، وقول الأعمش للذين ذكروا عنده عمر بن عبد العزيز وعدله: «كيف لو أدركتم معاوية؟» قالوا: فى حلمه؟ قال: «لا والله، بل فى عدله» ومعاوية ﷺ كان كاتبًا للوحى بأمر الله ورسوله ﷺ.

ولَّاه عمر بن الخطاب وجمع له الشامات كلها، وأقره عثمان ﷺ، فمعاوية صحابى جليل، خال المؤمنين، وكاتب للوحى، فلا مجال للخوض فيه أو الطعن فيه ﷺ، وإنا لندين لله بالترضى عنه وعن آله المسلمين من صحابة رسول الله ﷺ.

أما عمرو بن العاص ﷺ فهو صحابى جليل بذل وأعطى وكافح وحرر مصر وكان سببًا فى إهداء الإسلام إلى مصر، وإهداء مصر إلى الإسلام فنعمت الهدية ونعم مهديها.

أما عن قضية التحكيم فهو لم يُغالط أبا موسى الأشعرى ولم يخدعه؛ لأنه لم يعط معاوية شيئًا جديدًا ولم يقرر فى التحكيم غير الذى قرره أبو موسى الأشعرى ولم يخرج عما اتفقا عليه معًا.

وكما قلنا عن معاوية نقول أيضًا: إن عمرًا اجتهد ولكن لم يوافيه الحظ فى الصواب ولكن له كل الفضل فى فتح فلسطين وفتح مصر وليبيا، وكان صاحب رسول الله ﷺ.

فلا يجب الخوض فى أخطائه ونكله إلى نيته فإن الله -عز وجل- هو الذى يتولى السرائر.

وبعد... فبقيت العراق والحجاز وما يتبعهما تحت يد الإمام على، وبقيت الشام وما يتبعها تحت يد معاوية وتعلقت الإمامة بما سيكون من اتفاق كبار الصحابة فالذى فعله عمرو بن العاص هو نفس الذى فعله أبو موسى الأشعرى لا يفترق عنه قط فى نقير ولا قطمير.

وبقى أمر الخلافة معلقًا فى نظر أعيان الصحابة؛ ليروا فيه رأيهم متى شاؤوا، وإذا كانت هذه الخطوة لم تتم فما فى ذلك تقصير من أبى موسى ولا من عمرو فهما قد قاما بمهمتهما بحسب ما أدى إليه اجتهادهما واقتناعهما، وانتهى التحكيم.

رفض الإمام على هذه النتيجة؛ لأن الخلاف لم يكن قائمًا على منصب الخلافة وإنما على إقامة الحد على قتلة عثمان وعلى بيعة معاوية لعلى بن أبى طالب وتطورت الأحداث بعد ذلك وانقسم جيش «علىّ» على نفسه وفرق الخلاف أصحاب «الإمام» وفى سرعة غريبة أيضًا تحولوا إلى شيع يقاتل بعضها بعضًا.. بل تقاتل الإمام نفسه وتواجهه بألأم عصيان!!

وقف الإمام وسط البقية من أصحابه الذين لم يُفتنوا عن الولاء للحق.. لم يكن لديه وقت للعتاب، ولا لاجترار الندم وقف لتعبئة أصحابه والسير إلى الشام، بيد أنه لم يكد يتحرك مسافرًا حتى جاءته الأنباء مثيرة مُزعجة، أنباء الخوارج الذين انطلقوا هائمين فى البلاد والقرى يقتلون كل من يخالفهم الرأى..

جاءت أخبارهم إلى «الإمام» وأرسل الناس من كل مكان يستغيثون به ويتوسلون إليه ألا يذهب إلى الشام قبل أن يؤمنهم من هذا الوباء الماحق الذى استشرى فجأة وبغير حساب!!

الراحل والمقيم

لقد ضاعت من الدولة المسلمة الراشدة التى كان الإمام يريد أن يعيدها إلى جادتها، ويمضى بها على صراطها الأول القويم ضاعت من مقادير الإسلام التى كادت تصبح على موعد مع خليفة آخر من طراز «عمر بن الخطاب» فى صرامته، وعدله، وفى استقامته وورعه.. فى ترفعه، وتواضعه، وزهده.. والخليفة المتقشف الذى تجبى إليه الأموال حلالًا طيبة من أقطار الأرض، ثم هو يلبس قميصًا بثلاثة دراهم!!

الخطيب الذى تهتز الدنيا لكلماته، الفقيه العالم الذى تتفجر الحكمة من نفسه وعقله، ويجرى الحق على لسانه وقلبه!!

العابد، الورع، التقى الذى تفوق على إغراء الدنيا، وعلى أطماع البشر!! تلميذ الرسول الأول والأمثل!!

ربيب الوحى، وسابق المسلمين!!

كل هذا فى طريقه الآن إلى الرحيل.. ليحتل مكانه مُلْك عَضُوض يقوم إيوانه وعرشه فى الشام.

الآن تقترب الأمور من نهايتها.

ويقف «البطل» بين فتنتين عارمتين:

أولهما: فى الشام تصيح: «يا لثأرات عثمان».

وثانيهما: فى العراق تصيح: «لا حكم إلا لله».

ولئن كانت الأولى أعتى وأوسع، فإن الثانية أقضّ وأوجع ذلك أن زويها ومُشعليها الذين كانوا بالأمس لا غير من أتباعه وجنده.. وهم الذين أصروا أو أصر أكثرهم على قبول التحكيم حين كان يحذرهم منه ويدعوهم إلى رفضه.

وهم أولئك بالأمس.. هؤلاء الذين يحملون السلاح اليوم؛ ليحكموا وفق هواهم، وهم الذين ينشرون الذعر والرعب والفزع فى أفئدة الآمنين، وهم.. أخيراً.. الذين يضطرونه ليحمل السلاح فى وجوههم..!

لقد حاول أن يحملهم بمنطقه على الرُّجعى ولكن الفتنة والضلال كانا قد أحكما الخناق على عقولهم وألبابهم.

ولقد فقد «الإمام» كل أمل فى هدايتهم حين بلغه نبأ مقتل عبد الله بن خباب وزوجته، والطريقة التى قتلوهما بها فلم يكد مقتل «عبد الله بن خباب» يبلغ مسامع «الإمام» حتى تراءى أمامه مصير الأبرياء.. لو تُرك هؤلاء الهائمون المتوحشون يعيشون فى أرض الناس.

فلوى زمام جيشه عن الشام إلى النهروان حيث لقى الخوارج فى معركة فاصلة أباد فيها جمعهم وشتت شملهم وطوّح رؤوس قادتهم وزعمائهم.

أفما آن له أن يستريح..؟

ألا ينفض يديه من ذلك الظلام، ويخرج من تلك المتاهات إلى حيث يعبد الله بقلبه السليم، وينفع المسلمين بعلمه العميم؟ ربما كان ذلك بعض أمانيه.. ولكنها مسؤولياته وتبعاته.. من يحملها سواه...!!

إنها فوق كاهله.. لن يضعها عنه سوى الموت..

فأين هو..! ومتى يجيء؟!

إنه ليُحس أن قد آن أوانه..

فإن أهل الكوفة الذين دعاهم إلى السير معه صوب الشام للقاء معاوية.. قد تقاعسوا

وراحوا يتسللون الواحد بعد الآخر من معسكرهم بالنُخْيلة حتى تلفّت «الإمام» ذات صباح فلم يجد حوله منهم سوى ألف لا يزيدون!!

انتهى دوره إذاً.. ففيم البقاء؟

لقد كانت حياته فى دورها الأخير هذا وقفًا على قضية كبرى أن يُعيد للإسلام حقيقته، وللمسلمين وحدتهم، وللدولة الإسلامية تماسكها، وشرعتها، واستقامتها..

أجل.. كانت القضية التى نذر لها حياته هي: أن يرد الإسلام إلى حقيقته.. وأن يرد المسلمين إلى الإسلام..!

ولم يترك سِلْمًا، ولا حربًا يبلغان به غايته النبيلة إلا توسل بها فى عدالة وشرف.

ولقد كانت قضية واضحة المحيّا، مُشرقة الجبين.. ناصعة الحجة، طاهرة الضمير..

والآن لم يبق من المسلمين أحد إلا بحّ صوته ترحُمًا على «الإمام عليّ»، وأحس المسلمون فى كل مكان.. وفى العراق خاصة أنهم ضالعون فى الإثم، شركاء فى الوزر، يوم تخلّوا عن «البطل» وتركوه وحده فى الفضاء الموحش وراحوا يبكون ويولولون..

لقد أحسوا فجأة بالفراغ القاتل الذى خلّفه لهم غياب أبيهم الحنون العادل الرحيم.. وراحوا يترحمون عليه من كل أفئدتهم الصادعة الضارعة.

أقول: يترحمون إنه مات... مات ابن عم الرسول وزوج البتول أجل.. أقول لكم: إنه مات.. قُتل غيلة، استشهد البطل والخليفة والإمام- وهو يقترب من باب مسجد الكوفة، وقيل: بل وهو يصلى، أو يتهيأ للصلاة بعد أن عبر شوارعها يوقظ أهلها لصلاة الفجر.. ويناديهم «الصلاة، أيها الناس، الصلاة يرحمكم الله» اقترب منه فى لُجة الظلام واحد من الخوارج اسمه -عبد الرحمن بن مُلجم- كان قد ائتمر مع اثنين آخرين ليتخلصوا من «الإمام» بالعراق، ومن «معاوية» بالشام، ومن عمرو بن العاص بمصر.

قبل استشهاد «الإمام» بأيام نادى أهل الكوفة من كتاب كتبه، ووقف أحد أصحابه يتلوه عليهم بعد صلاة الجمعة «.. أما والله لوَددت أن الله أخرجنى من بين أظهركم، وقبضنى إلى رحمته من بينكم..

ولوددتُ أنى لم أراكم ولم أعرفكم..

فقد.. والله ملأتم صدرى غيظًا، وجرّعتمونى الأمّرين أنفاسًا وأفسدتم على رأيى

بالعصيان والخذلان.. حتى قالت قريش: إن ابن أبى طالب رجل شجاع ولكن لا علم له بالحرب، لله أبرهم.. هل كان فيهم رجل أشد لها ميراسًا، وأطول مقاسًا مني؟؟

لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين.

وهأنذا اليوم قد عدوت الستين، ولكن. لا رأى لمن لا يُطاع!!».

أجل.. يا أمير المؤمنين، لا رأى لمن لا يطاع..

ولقد سارع القدر إلى رجائك، فأخرجك الله من بين أظُهرهم، وقبضك إلى رحمته تقيًّا.. نقيًّا.. بارًّا ولقد حملك إلى الرفيق الأعلى زورقك الآمن الذى طالما قهرت به أمواج الفتن حتى اجتزتها جميعًا فى سلام.

ولطالما كنت تذكر الحديث الذى دار بينك وبين الرسول ﷺ، ذات يوم بعيد. يوم سألك- يا أمير المؤمنين- قائلًا:

[يا على..

كيف أنت إذا زهد الناس فى الآخرة، ورغبوا فى الدنيا وأكلوا التراث أكلاً لَمًّا.. وأحبوا المال حبًّا جمًّا.. واتخذوا دين الله دغلًا ومالوا دُولا...؟]

فأجبته - يا أمير المؤمنين- قائلًا.

[إذن - أتركهم لدنياهم، وأذرهم وما اختاروا.. واختار الله ورسوله والدار الآخرة.. وأصبر على ذلك حتى ألحق بكم..!]

لقى «الإمام» ربه مصابًا بضربة سيف مسموم.. كما لقيه من قبل عمر الفاروق، مصابًا بضربة خنجر محموم!!

دعا «الإمام» بنيه وعلى رأسهم «الحسن» ﷺ جميعًا، وراح يُملى عليه وصيته:

[.. أوصيكم بتقوى الله ربكم، ولا تموتُن إلا وأنتم مسلمون واعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا فإنى سمعت رسول الله ﷺ، يقول: إن صلاح ذات البين أفضل من الصلاة والصيام..

«الله، الله فى القرآن، لا يسبقنكم إلى العمل سابق..»

«الله، الله فى الفقراء والمساكين أشركوهم فى معاشكم لا تخافن فى الله لومة لائم يكُفِكُم من أرادكم وبغى عليكم..».

«لا تدعوا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وقولوا للناس حُسنًا، كما أمركم الله تعالى».

«عليكم بالتواصل وإياكم والتدابر وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان..»].

وقع الاعتداء على حياة الإمام فجر الجمعة الثامن عشر من رمضان عام أربعين من الهجرة، وفاضت روحه الطاهرة المطهرة مع غروب يوم السبت التاسع عشر من رمضان.

وهكذا رحل الإمام .. وما رحل..

فهو الظاعن الحاضر..

وهو الراحل المقيم..

لقد فتح لذكره، ولذكراه أبواب الخلود حينما ترك لذوى الدنيا دنياهم، واختار الله ورسوله والدار الآخرة...

ولئن كان لم ينصفه الذين غلوا فى حربه...

ولم ينصفه الذين غلوا فى حُبه...

فقد أنصفته عظمته الفريدة، إذ فرضت على الأعداء جلالها وعلى الأصدقاء استغناءها..

وسارت على وجه الزمان طاهرة، ناضرة، ظافرة..

وتلكم هى العظمة حقًّا..!!

* * *

«قُصاصة منقولة»

هذه قصاصة منقولة اقتطفتها من سياق كتاب «العواصم من القواصم» لابن العربى، الذى عُنى فيها بالرد على كل من يَسُب صحابة النبى ﷺ.

فقال: لقد كانت الكتابات الأولى عن الصحابة -رضوان الله عليهم- لا تخلو من إجحاف وجنوح إلى معسكر دون الآخر، خاصة بعد مقتل عثمان ﷺ، مظلومًا.

ثم بدأ التاريخ الإسلامى يُكتب بعد مائة عام من قيام دولة بنى العباس، مما يعني: أن ثلاثة قرون أو يقل أو يزيد بين الحدث والكتابة مما وفر للكذاب أرضية عريضة، ومساحة واسعة يتحرك فيها، والحق أن عدة ظروف تحالفت للطعن على عثمان ﷺ والصحابة، وبنى أمية وغيرهم، بقصد أو بدون قصد.

فكما قلنا: إن التاريخ الإسلامى لم يبدأ تدوينه إلا بعد زوال بنى أُمية .. فتولى تدوينه ثلاث طوائف:

طائفة كانت تنشد العيش من التقرب إلى مُبغضى بنى أمية بما تكتبه وتؤلفه، وطائفة ظنت أن التدوين لا يتم ولا يكون التقرب إلى الله إلا بتشويه سمعة أبى بكر وعمر وعثمان وبنى عبد شمس جميعًا، وطائفة ثالثة من أهل الإنصاف والدين، رأت أن تجمع أخبار الإخباريين من كل المذاهب ثم زادت وطأة الاتهامات والمغالطات والافتراءات بعد دخول المستشرقين من أصحاب المصالح معترك التاريخ الإسلامى بغير وجه حق، فكتبوا ودوَّنوا ضد مصلحة الصحابة عمومًا وعثمان وبنى أمية خاصة.

وكما يقول ابن العربى فى كتابه «العواصم من القواصم» إن كثيرًا من كتَّابنا إلا من رحم ربى، يعيش على وهم التلقى بلا تمحيص من باب الكسل العلمى، ويكتفون بالنقل من غيرهم فقد استشرى الطعن فى صحابة رسول الله ﷺ، حتى صار دأبًا لكثير من الناس ومن هنا كانت أهمية هذه «القصاصة» التى اقتطعتها من الكتاب المنوه عنه كى نزيح الغمامات والافتراءات على الصحابة.

ونقول أولاً: أننا نرضى عن أصحاب رسول الله ﷺ، ونهب خطأهم لفضلهم، ثم

نقول: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر ١٠].

ثانيا: أننا لا نعتقد العصمة لأحد منهم، وإنا على إقرارنا بعدم عصمتهم لا نُفتش فى خطئهم ولا ننقب عنه، ورحم الله أحمد بن حنبل إذ قال: «ما انتقص أحدٌ أحدًا من الصحابة إلا وله داخلة سوء».

فنحن لا نبرئ أحدًا، غير أنا لا نتهم أحدًا والله يعفو عنا وعنهم.

* * *